الأديب والشاعر محمد جواد الغبان:

عندما اشرع في الكتابة أحس كأني في العشرين من عمري

حاوره/ علي الكناني

تمتد معرفتي بالأديب الموسوعي الكبير والشاعر الرائد الأستاذ محمد جواد الغبان الى أواخر الثمانينيات عندما كنت أحضر مع زملاء آخرين مجلسه الأدبي العريق الذي كان يعقد مساء كل يوم أحد في داره العامرة في بغداد، بحضور نخبة رائعة من كبار الشعراء والشخصيات الأدبية والعلمية المعروفة بثقلها المعرفي وممن تركوا بصمات واضحة على مسار الحركة الثقافية والفكرية في العراق والعالم العربي من خلال ما قدموه من انجازات وطروحات علمية وثقافية زاخرة بعطائها الفكري والمعرفي كالدكتور علي الوردي والدكتور حسين علي محفوظ وحسين امين وخالد العربي والشيخ جلال الحنفي وإبراهيم الوائلي وصادق القاموسي وآخرين ممن تميزوا بتعدد اهتماماتهم الأدبية والعلمية.

الشاعر محمد جواد الغبان

يعد الغبان رائداً من رواد الصحافة الأدبية والثقافية والمعرفية في العراق والوطن العربي، ناهيك عن كونه شاعراً كبيراً وباحثاً متضلعاً في اللغة العربية شهدت له مؤلفاته ودراساته المتعددة في هذا الاتجاه وغيره، ولكن ما أثار فينا الدهشة والإعجاب به إنه رغم بلوغه الثمانين من العمر، الا انك حين تجالسه، تجده يتحدى معاناته ومرضه متشبثاً بالتواصل والعطاء الأدبي ولعلك ستراه محقاً حين يقول عن نفسه (عندما اشرع بالكتابة أحس كأني شاب في العشرين من عمري لا في الثمانين.. وهاجسي الدائم هو ان آتي بشيء جديد ينفع الآخرين...).

محاورة شخصية أدبية متعددة الاهتمامات كالغبان تضعك امام مسار صعب قد يتحكم فيه الفضول الصحفي فيضعك امام مفترق طرق اثناء محاولتك أختيار محاور هذا اللقاء لمعرفة تفاصيل مهمة عن مسيرته الأدبية وحياته، بل سيتعداه ذلك لمعرفة المزيد من المعلومات التي تكتنزها ذاكرته عن تلك الشخصيات المرموقة والكبيرة التي عاصرها وزاملها الغبان لسنوات طوال، فهو بمثابة وثيقة ثقافية متحركة مازالت تنبض بالحياة.

ولكن لنعد ثانية الى الغبان لنتعرف على بعض ملامح بدايات حياته..

فهو من اسرة بغدادية عريقة هي أسرة آل الغبان وتمتد جذورها في بغداد الى مطلع القرن السادس عشر الميلادي، حيث سكن جدهم الاعلى مدينة بغداد وبقي فيها الى مطلع القرن العشرين ثم سافر جده وابوه الى مدينة النجف الاشرف طلباً للعلم.. ورغم انصراف جده الى التجارة، الا ان والده المغفور له الشيخ عبد الكاظم الغبان نراه قد أهتم بالدراسة في الحوزة الدينية في النجف الاشرف ولينال مرتبة الاجتهاد فيها..

ولد الشاعر والأديب محمد جواد الغبان في مدينة النجف الاشرف عام ١٩٣٠ ونشا وترعرع في بيت تغمره الأجواء الدينية والأدبية، وكان لخاله الشيخ محمد علي اليعقوبي احد رواد النهضة الأدبية في العراق الأثر البالغ في تفتق مواهبه الادبية والشعرية في بيئة النجف التي تعودت ان يكون الشعر فيها لغة الحياة اليومية.

كنت أقرأ أمهات الكتب

يواصل الغبان الحديث عن حياته وقراءاته الأولى قائلاً:

لقد حثني والدي منذ ان كنت صغيراً على قراءة اشعار المتنبي رغم انني كنت لا افهم معاني كلماتها آنذاك ولكن ذلك شدني للشعر وبالذات لقصائد المتنبي الذي يعد اعظم الشعراء دون منازع والذي ملأ الدنيا وشغل الناس على مر العصور.

كما كنت اقرأ امهات الكتب الادبية والتراثية القديمة، الى جانب كتب النهضة الادبية الحديثة.. لطه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل والمازني وغيرهم من الكتاب الذين نبغوا في مطلع القرن العشرين.

فما ان تجاوزت الخامسة عشرة من العمر حتى قمت بكتابة اولى ابياتي الشعرية ولكن سرعان ما تحولت هذه الأبيات الى قصيدة شعرية هي خطواتي الأولى كشاعر وذلك عام ١٩٤٦ حيث القيتها في محفل أدبي ضم نخبة كبيرة من العلماء والادباء آنذاك. ولتنشر فيما بعد هذه القصيدة ضمن موسوعة العلامة محسن الأمين العاملي (اعيان الشيعة). ثم دخلت كلية منتدى النشر في النجف الاشرف وتخرجت فيها عام ١٩٤٩- ١٩٥٠ وبعد حصولي على المرتبة الأولى تم تعييني مدرساً في إحدى مدارسها الدينية في النجف وكانت أول دراسة اقدمها هي عن جعفر بن ابي طالب، حيث لم يسبقني احد بذلك فقدمتها الى العلامة المغفور له الامام محمد حسين آل كاشف الغطاء لكتابة مقدمة لها، فاستمهلني بعض الوقت وبعد مراجعتي له وجدته قد كتب لي اروع مقدمة مازلت اعتز بها الى الآن، واعتبرها أول وسام أدبي اتقلده في حياتي من هذا العلامة الكبير.

حصيلة مؤلفاتي تربو على الثلاثين مؤلفاً

❖ لقد تعددت اهتماماتكم الأدبية والثقافية فبأي منها يرى الأستاذ الغبان نفسه أكثر حضوراً؟

- ان مجالات اهتماماتي متعددة وكثيرة وهي اقرب الى الموسوعية، ففي الشعر لدي العديد من الدواوين وأولها طبع عام ١٩٥٣ في النجف الاشرف وآخرها طبع في بغداد عام ٢٠٠١ وهي لا تقل عن سبعة الى ثمانية دواوين وقد نشرت قصائدي في العديد من المجلات والصحف العراقية منذ الاربعينيات وحتى الان ومنها.. الدليل والهاتف والغري واليقظة البغدادية، وفي الستينيات والسبعينيات نشرت قصائدي في عدد من المجلات والصحف العربية كمجلة الاديب البيروتية والفكر التونسية وصحيفة الاهرام القاهرية وغيرها.

كما ان حصيلة المؤلفات التي انجزتها تربو على الثلاثين مؤلفاً. فاضافة الى دواوين الشعر لدي كتب أخرى في اللغة العربية نتمنى ان يلتفت اليها ذوو الشأن لطبعها وإصدارها لاهميتها للدارسين والباحثين ومنها.. (ازاهير في لغتنا الشاعرة) وبحوث في اللغة وكتاب (عن معاني الأسماء).

اضافة الى ان لدي الان كتبا أخرى هي جاهزة للطبع ايضاً ومنها كتاب عن الحياة الأدبية في النجف الاشرف ويعد من الكتب المهمة وكتاب (دراسة عن الشيخ اليعقوبي) مع اربعة كتب أخرى في اللغة.

وسألته عن علاقته بشاعر العرب الاكبر محمد مهدي الجواهري فأجاب قائلاً:

- تربطني بالشاعر الكبير الجواهري صلة وثيقة لكونه ابن مدينتي النجف الاشرف وتعد اسرته من الأسر العلمية المرموقة، وقد توثقت هذه الصلة بحكم العلاقات العائلية حيث كنت ازوره في بيته في بغداد في اوائل الخمسينيات عندما كان يصدر عدداً من الصحف آنذاك ومنها الرأي العام وغيرها.

وفي عام ١٩٥٨ كنت شريكاً معه في تشكيل الهيئة التأسيسية لاتحاد الأدباء العراقيين التي كنت عضواً مؤسساً لها والتي لم يبق احد من اعضاء تلك الهيئة على قيد الحياة غيري. وقد شهد منزل الجواهري ذلك الوقت ولادة هذا الاتحاد.

كتابي عن المتنبي من المؤلفات التي أفخر بها

قلت للاستاذ الغبان على ذكر مؤلفاتك الاخيرة الثلاثة والتي انجزتها خلال فترة وجيزة لم تتجاوز العام ونصف العام وهي (العروج في ملكوت المتنبي والمعارك الادبية حول تحرير المرأة ودراسة عن الجواهري (فارس الادب) ماذا اردت ان تقول فيها؟

- اود ان اذكر لك اولاً ان الذي يؤلف كتاباً يجب عليه ان يأتي بشيء جديد، لا ان يأتي بالكلام المكرر والمعاد وكتابي عن المتنبي هو من الكتب التي افخر واعتز بتأليفها لما يتمتع به هذا العملاق والشاعر الكبير من مكانة عالية في نفوس الناس عموماً حيث كتب عنه الكثيرون من الباحثين والادباء واول من كتب عنه في العصر الحديث وفي النصف الاول من القرن محمود محمد شاكر عام ١٩٣٦ ثم كتب عنه في نفس العام طه حسين وتلاه العقاد والمازني وآخرون غيرهم في عشرات الكتب فكان لكل منهم رأيه فيه حتى تضاربت الآراء، أما في كتابي عنه، فكان حصيلة ما قرأته في كل هذه الكتب التي كتبت عنه، ولكني اتيت بأشياء جديدة لم يأت بها الآخرون فمثلاً ما قاله في احد ابياته الشعرية..

ما مقامي بأرض نخلة إلا
كمقام المسيح بين اليهود

وهذا ما نشر في جميع دواوينه المطبوعة بينما الصحيح هو ما مقامي بأرض (نحلة) وهي من قرى الشام وقد ذكرت في كتاب معجم البلدان وليس (نخلة) وقد وضحت ذلك مفصلاً في كتابي ويشرفني ان اكون اول من توصل الى هذه الحقيقة.

وعلى سبيل المثال، إن خصوم المتنبي يقولون ان اسم والده هو (عبدان) والسقاء وهذا ما يتداوله الكثير من المؤلفين والكتاب، ولكن من خلال البحث والتدقيق توصلت الى هذا الخطأ والتحريف من خصومه. والصحيح هو (عيدان السقاء) وليس عبدان السقاء، وهو لقب الحسين والد المتنبي وقد تناولت ذلك بصورة وافية في كتابي عنه.

اما كتابي الثالث فهو عن الجواهري (فارس الأدب) فيتضمن فصلين الاول دراسة عن شخصية الجواهري وشعره والثاني يتناول ذكرياتي معه وهي ذكريات جميلة ورائعة.

❖ كما أنني احد اعضاء نقابة الصحفيين عام ١٩٥٩ والتي كان الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري اول نقيب لها. واود ان اذكر لك انه لم يبق الآن من المجلس المؤسس للنقابة الا اثنان وهما الاستاذ جلال الطالباني رئيس الجمهورية وانا وقد كان حينها السيد الطالباني في اول ايام شبابه ويعمل محرراً في جريدة خابات، وكان ذلك عام ١٩٥٩ وبعد ترشيحه لانتخابات النقابة حصل على نسبة عالية من الاصوات فجاء بالمرتبة الثانية بعد الجواهري في تسلسل الفائزين وما زلت اتذكر ان الجواهري قال لي وقتها.. ان هذا الشاب المتوهج ويقصد بذلك الاستاذ جلال أتنبأ بان يكون له مستقبل كبير وكأنه كان ينظر بعين الغيب بانه سيكون رئيساً للعراق.

❖ اما حصيلة المؤلفات التي انجزها الاستاذ الغبان فهي تربو على الثلاثين مؤلفاً فاضافة الى الشعر والدراسات الادبية لديه كتب في اللغة العربية يتمنى ان تلتفت اليها الجهات المعنية لطبعها واصدارها لاهميتها للدارسين والباحثين ومنها (ازاهير في لغتنا الشاعرة) وبحوث في اللغة وكتاب عن معاني الاسماء.

❖ ويروي الشاعر والاديب الغبان موقفاً تعرض له لا يخلو من الطرافة فيقول عنه..

- مرة اخجلني علامة العراق الشيخ بهجت الاثري حين اختلف مع العلامة الراحل الشيخ جلال الحنفي في مسألة لغوية وهي الهمزة في كلمة (هيئة) هل تكتب على الألف ام على الياء فقال له الشيخ الاثري نحتكم الى الغبان لنسمع ما يراه هو في هذا الشأن، فأعتذرت عن ذلك تخلصاً من الاحراج ولكنه لم يقبل العذر، فكتبت بحثاً مطولاً في هذا الخصوص وقد كان رأي الشيخ الحنفي هو الصحيح في ذلك أي ان كلمة (هيئة) تكتب الهمزة على الياء وليس على الالف.

❖ وماذا عن آخر قصيدة كتبتها؟

- آخر قصيدة كتبتها كانت (سيدي يا عراق) وقد القيتها قبل شهور في عمان مرتين وهي من ستين بيتاً. وقد قال احدهم معقباً- كنا نعتقد ان الجواهري قد مات ولكن الآن لما سمعنا هذه القصيدة احسسنا انه بعث الى الحياة من جديد بوجودك انت وبشاعريتك وتقول في مطلعها:

ملء قلبي تلهف واشتياق
وهوى جامح الرؤى دفاق
راح يسري بين الحنايا فراحت
ترتوي من نميره الاعماق
هل رأيتم في الكون احلى من الحب
شهياً يطيب منه المذاق
يا حبيباً لا تشبع العين منه
فتمنت تضمه الاحداق

احدى مجالسه الأدبية

مقاطع من سيرة عراقية❖

سينمات بغداد.. جناني المفقودة..

سليم مطر جنيف

قد تستغربون يا اصدقائي، لو اخبرتكم بأني في طفولتي ومراهقتي، دفء الامومة المفقودة وجذور الانتماء الوطني الغائب، وجدته في قاعات السينما! تقريبا طيلة السنوات العشرين التي عشتها في بلادي، كان العالم بالنسبة لي منقسماً الى قسمين: العالم الطبيعي خارج السينما، وهو عالم قاسٍ متعب مذل، ثم عالم السينما، وهو عالم طيب رطب مريح شاسع حر بلا حدود فيه الفن والمتعة والمحبة والكرامة والجمال. منذ الطفولة، في كل مرة كنت ادخل فيها الى قاعة السينما كانت تسري في بدني قشعريرة شوق وخوف ولذة والفة كأني اعود من جديد الى (بيت الرحم). حتى الآن وانا في جنيف، ما ان تطأ قدماي قاعة السينما، تعود بي روحي الى سينمات بغداد، فأشتاق الى دفء وعتمة وعبق روائح اليفة هي خليط من ذرة مشوية (الشامية) ومشروبات باردة ودخان سيكاير وتعرق وعفن، وانفاس اناس باحثين عن متعة واحلام.

اتذكر المرة الاولى، ربما في سن الخامسة (عام١٩٦١)، اخذني ابي الى (سينما ميامي) في ميدان الباب الشرقي في وسط بغداد. كان فلم (طرزان في الغابة) مع محبوبته جيني وابنه وقرده(الشيتة). كان ذلك اليوم بالنسبة لي اكتشافا عظيما لا يضاهيه اهمية الا اكتشافي لمجلة (سوبرمان)، بعد عام او عامين.

ليست الافلام وحدها، هي التي كانت تشدني الى السينما،انما تلك الاجواء العجيبة الغريبة المحيطة بها في القاعة نفسها: العتمة والترقب وتعليقات المشاهدين وتحذيراتهم للبطل(الولد) من المخاطر التي تحيق به: (لك دير بالك.. ترى راح يغدر بيك العصابجي.. لك الحية وراك عيني را ح تلدغك.. آخ يابا.. اويلاخ الملاعين التموا عليه..)). ثم حماستهم في كل مرة يحقق فيها البطل(الولد) انتصارا على اعدائه، فيتصاعد التصفيق والصفير وصرخات الفرح:(لك عيني فدوه اغديلك.. حيل .. يابا شوف شبعه كتل.. لك عوافي عليك .. تستاهل.. عيني بوسها وبوس ابوها وياها...)). واشد اللحظات حزنا وغضبا كانت عندما ينقطع عرض الفلم فجأة لخلل ما، وما اكثره، فينفجر الصفير والزعيق وصرخات الاحتجاج والشتائم: (لك اعور.. لك اعور..))، وما ان يعود العرض حتى تتصاعد صرخات البهجة والتشجيع والتصفيق، ثم يعم الهدوء لمتابعة الفلم.

كانت فترة انتظار بدء الفلم، من اكثر الاوقات توقا وتململا. لا ادري لماذا كانت جميع السينمات تقريبا تبث اغاني ام كلثوم اثناء فترة الانتظار تلك. لعلي لهذا السبب لم اتعلق بصوت هذه المغنية الكبيرة، لأنها ارتبطت بفترة الانتظار المملة هذه. اما لحظات انقطاع الغناء ودق جرس الانذار وبدء انطفاء الاضوية، فأنها كانت من اجمل اللحظات واكثرها متعة وتشويقا وحماسا، وعندما تبدأ الستارة بالانفتاح وتتكشف بالتدريج الشاشة البيضاء وسط العتمة الهابطة، اشعر حينها كأن قوى سحرية ترفعني وتطير بي وسط نسيم من نور الهي مفعم برحمة لذيذة لا توصف.

بقيت حتى سن العاشرة اذهب للسينما مع ابي واخي الاكبر (قيس) واخي (راضي) الاكبر مني مباشرة، كذلك احيانا مع اختي الكبيرة (ليلى) لمشاهدة افلام (العندليب الاسمر عبد الحليم حافظ). كانت اختي تأخذني معها خصوصا من اجل حماية نفسها من ظنون الناس وتحرشات الشبان. واتذكر حتى الآن فلم (الخطايا) في (سينما روكسي) في شارع الرشيد، والزحام الشديد والتدافع واعتداءات الشبان لإستغلال الفرصة والتحرش(الطبق على البنات). وحدوث الشجارات العديدة وحالات الاختناق للحصول على التذاكر. بقي في ذاكرتي فلم(ام الهند) الذي شاهدته مع اخي واختي في (سينما البيضاء) الصيفية(بلا سقف حيث نشاهد نجوم السماء) في مدخل شارع الكفاح، وكان ذروة الافلام العاطفية الهندية التي تجعل المشاهدين يبكون ويشهقون بأصوات عالية.

كنا انا واخي راضي، مثل غالبية فتيان العراق، السينما هي تسليتنا الاولى ايام العيد. كنا نشاهد عدة افلام في اليوم الواحد. نأخذ عيديتنا التي لا تتجاوز بضعة دراهم، ونذهب الى سينما السندباد وبعدها الى سينما الخيام، ثم الى سينما ميامي، وهكذا دواليك. وكل سينما تعرض فلمين بآن واحد، فكنا نعود الى البيت منهكين ثملين سينمائيا وقد اختلطت علينا مشاهد الافلام وتداخلت ملامح (هرقل الجبار محطم السلاسل) مع العصابجي (رنكو ومسدسه الذهبي) مع (شامي كابور في باريس). وطبعا لا تكتمل متعة سينما العيد الا مع سندويشات الفلافل والبيض والعنبة.

مع مرور الزمن واستفحال مشاعر الحرمان والغربة ومعاناتي من شغلي في حانوت ابي وما يفرضه علي من مشاهدات يومية لعذابات المعتقلين في دائرة الامن العامة، بالاضافة الى مصاعب المدرسة وتفاقم احساسي بالعار من فقر اهلي ومن اصلي الشركاوي(جنوب شرق العراق)، بدأت احس بالسينما هي ملاذي ومخدري الذي يجعلني انقطع تماما عن واقعي. ما ان تنطفئ الأضواء ويعم الظلام وتشع الشاشة بكونها اللامحدود حتى انتقل الى عالم جديد من احلام البطولة والمحبة والتضحية التي افتقدها في حياتي اليومية. الى الآن وانا في جنيف، كلما دخلت قاعة السينما، يسري في نوع من خدر طفولة ورهبة عابد يدخل الى معبده، فأشرع بتمتمة تعويذات مبهمة بألفة وتبجيل لمعبودي الذي أدعوه ان لا يخيب املي، ومعبودي انا هو الفلم الموعود.

في سن العاشرة بدأت اذهب الى السينما وحدي. احيانا قليلة بعلم ابي، واحيانا كثيرة من دون علمه. استغل اية فرصة للغياب عن الحانوت، فادخل الى السينما. كنت اجمع النقود من عملي احيانا بتنظيف السيارات، بجانب عملي في الحانوت، كذلك كنت اضطر احيانا الى اكمال المبلغ المطلوب(٦٠) فلسا، بسرقة بعض من ارباح الحانوت. كنت استغل خصوصا المناسبات التي يبعثني بها ابي لاشتري له من شارع السعدون بطاقات اليانصيب، او الى ساحة النهضة لاشتري له(دجاج مي). وكثيرا من الاحيان كنت اضطر الى عدم اكمال الفلم خوفا من عقاب ابي على تأخري. واظل انتظر اية فرصة للعودة لنفس السينما، فقط لمشاهدة الجزء الاخير الذي فاتني. حتى الآن، أحيانا يراودني ذلك الشعور المزدوج الممزوج باللذة والقلق، لذة مشاهدة الفلم والقلق من العقاب المنتظر.

كانت قاعات السينما منقسمة الى درجات واسعار مختلفة: في الامام قرب الشاشة هو الارخص، ثم يليه القسم الوسطي، ثم القسم الاخير، بعدها القسم الاعلى (اللوج) وهو الاغلى ومفضل من قبل العشاق والعوائل. طبعا انا وامثالي(ولد الملحة)، كنا دائما في القسم الارخص قرب الشاشة، وما زلت حتى الآن في جنيف، رغم ان السعر واحد في كل القاعة، افضل ان اكون قريبا من الشاشة لكي اشعر بأني داخل الفلم تماما.

المشكلة الوحيدة التي كانت تزعجني وتسبب قلقي عند دخولي السينما، عدا مسألة تأخري عن والدي، هي تحرشات الرجال الشاذين. هذه مشكلة يواجهها غالبية فتيان بغداد، في الشوارع والمدارس والباصات واماكن العمل، حيث كانت تسود ظاهرة الشذوذ. لكن لحسن الحظ ان هؤلاء الشاذين كانوا يمتلكون ما يكفي من العقلانية والادب، لكي يبتعدوا عنك ما ان تبدي لهم رفضك لتحرشاتهم. لكن يبقى امرا متعبا ومقرفا، ان تظل دائما متيقظا حذرا وانت جالس في قاعة السينما المظلمة، لكي تغير مكانك في كل مرة تشعر بأن شاذا يجلس جنبك. خصوصا انك طفل لا تمتلك أي قوة عضلية للدفاع عن نفسك، وليس امامك غير تهديد الشاذ بالفضيحة.

في اول سن المراهقة، في الصف الاول المتوسط، اكتشفت عادة جديدة مع اصدقائي في متوسطة السعدون(قرب الجندي المجهول، ساحة الفردوس حاليا). رحنا نعبر عن تمردنا على قمع المدرسين، بالهرب من المدرسة. كنا نتفق كمجموعة ونطفر حائط المدرسة ونهرب لكي نتسكع في الطرقات. كنت اهرب مع اصدقائي (عوديشو الآشوري) و(عماد التلكيفي)، ونبحث عن أي فلم هندي لكي نشاهده. في تلك الفترة تعلقت بالسينما الهندية الى حد الولع والخبل. لا يمر فلم هندي واحد في سينمات بغداد دون ان اشاهده. واحيانا اشاهد الفلم الواحد مرات عديدة. رحت اشتري كتيبات الاغاني الهندية لكي اتعلم لفظها الصحيح. حتى الآن ما زلت احفظ بعض الاغاني الهندية واتقن غناءها. وما زلت احيانا استمع الى الاغاني الهندية وارقص وابكي معها.

اما ابطال الافلام فكانوا مثلي الاعلى من اجل تحمل حياتي الحالية. كنت مثل غالبية المراهقين، بعد كل فلم أشاهده كانت شخصية البطل تتقمصني واتماهى بها. اذا كان من نوعية ابطال افلام الكابوي مثل رنكو وجانكو، فأني اتخذ مظهر الحزين الصامت ذي النظرات الصارمة المتفحصة الباردة، واجبر نفسي على عدم الكلام والابتسام والضحك، واكون مستعدا لكل حركة مريبة من حولي لكي اسحب مسدسي(الوهمي) واقوم بقفزة بهلوانية نحو الارض مطلقا النيران على الاعداء الذين يتربصون بي. اما اذا كان من ابطال الافلام الهندية، امثال شامي وشاشي كابور وراجندر كومار ودارمندر، فأني تارة اتخذ مظهر الحالم الحزين وانا اصدح بتلك الاغاني الساحرة، وتارة مظهر المغازل اللعوب وانا اقوم بحركات راقصة ومنشدا تلك الالحان الفرحة. حتى الآن اتذكر جيدا عندما شاهدنا انا وصديقي عماد بطو فلم (القاتل ذو الوجه الملائكي) في سينما غرناطة، من بطولة الممثل الفرنسي الشهير(آلان ديلون) فتقمصتنا نظرات البطل الباردة الهادئة الخارقة، حتى خيل لي بأن عيوني قد اصبحت زرقاء مثل عيون البطل.

نعم يا اصدقائي، صدقوني ان قاعات السينما في عمر المراهقة، صارت هي امي ووطني. فيها اجد عوالم الدفء والحنان والتضامن الانساني المفقود. بلغ بي الامر، اني كنت على استعداد وبصورة صادقة ان اقبل العيش داخل قاعة السينما. امضي حياتي ليلي ونهاري في داخل القاعة اعيش وانام واصحو والافلام تدور وتدور، كما يدور الزمان في جنان الله الموعودة.

اما في عمر الشباب الاول، بعد ان اصبحت شيوعيا قبل بلوغي سن الثامنة عشرة، فأن علاقتي بالسينما اتخذت بعدا ثقافيا ونضاليا لم اعرفه من قبل. لقد اكتشفنا ما يسمى بـ (السينما التقدمية) ودورها بتوعية الجماهير ودفعهم الى تغيير الواقع. كان ذلك في اوائل السبعينيات وقيام ما سمي بـ(الجبهة الوطنية) التي كانت عبارة عن تحالف تكتيكي بين(حزب البعث) الحاكم و(الحزب الشيوعي) المحكوم، وكان بالحقيقة اشبه بتحالف الذئاب والخرفان. المهم، في تلك الفترة بدأت قاعات السينما في بغداد تعرض افلاما عالمية يسارية مثل(زد) و(ساكو وفانزيتي) وغيرها. كذلك راحت تقام بين حين وآخر مهرجانات سينما الاتحاد السوفيتي وباقي الدول الاشتراكية. فكان علينا نحن الشيوعيين اشبه بالواجب مشاهدة تلك الافلام ودفع اصدقائنا لمشاهدتها من اجل كسبهم لحزبنا. والطريف انه عند عرض احد تلك الافلام كانت قاعة السينما تغص بالطرفين النقيضين، الشيوعيين وانصارهم، ثم اعضاء المخابرات والامن من اجل مراقبة الوضع. اتذكر مرة في سينما سمير اميس في شارع السعدون في الفلم الروسي(الفجر يصعدون الى السماء) غصت قاعة السينما بالتصفيق الحار لمجرد ان احدى شخصيات الفلم قالت العبارة التالية: (ان هذا جواد عربي اصيل). ويبدو ان هذا التصفيق كان بمبادرة من افراد المخابرات والبعثيين، وقد شاركهم الشيوعيين حماستهم العروبية من باب التضامن الجبهوي لا اكثر.

اما انا، فرغم وضعي المالي السيء وتقتيري على نفسي حتى بالطعام، اذ كنت اشتغل كاتب طابعة في مجلس الخدمة ثم في وزارة الصحة، فكنت اخصص جزءا اساسيا من مرتبي للسينما. المشكلة اني كنت اضطر احيانا الى مشاهدة نفس الفلم التقدمي مرات عدة لأني كنت في كل مرة أصطحب معي احد المعارف لكي اكسبه للحزب. اتذكر مرة اصطحبت معي مجموعة من اصدقاء الحزب اعضاء الحلقة التي كنت مسؤولا عنها لمشاهدة احد افلام مهرجان السينما اليوغسلافية في (قاعة الخلد). وكم احسست بالخيبة والخجل والغضب وانا افاجأ بأن قصة الفلم تتحدث عن عائلة يوغسلافية تعاني الويلات من البيروقراطية الحاكمة، حزبا ودولة. يا للاحراج، انا جلبت هؤلاء الاصدقاء من اجل كسبهم للشيوعية وأذا بي اجعلهم يشاهدون فلما من اشد منتقدي وفاضحي النظام الشيوعي! لم يتبق امامي بعد نهاية الفلم غير ان ارقع المسألة باللجوء الى التفسير المصطنع التالي:

. مثل ما تعرفون يارفاق، هذا الوضع البيروقراطي السيئ موجود بس في يوغسلافيا، لانها خرجت من التحالف مع الرفاق السوفييت، وهذا سبب انحطاط الأوضاع عندهم!؟

خبز المعرفة

محمد الذهبي

في أيِ الحانات
تثاءبت الأقداح
وبكت ليلاً
احجم فيه الخمارون
هذا الخيام أفاق
ما أيقظت الخمرُ
سوى ديك الفجر
ملأ الأرض صياحاً
وانا
ابحث عن (حافظ) في شيراز،
وندیمي
غادرني قبل الفجر
وثوى خلف الدكة تلك
مكتوبٌ
هذا شمس الدين
(صانع الخبز)
فتحنا في الليل نوافذنا
وتجاذبنا اطراف الود
ايقظنا الموتى
ومضينا نبحث في الأسواق
عن الساقي
غادرَ حانته من عبث الخمارين
وحافظ
تأخذه سنةٌ من نوم
كنا نبحث عن حبٍ ضاع بشيراز
امضينا الليل بأكمله
نبحث عن حب ضاع